عناية الله في اختيار الزمان لظهور الدعوة

إن عناية الله – سبحانه وتعالى – التي تجلت في اختيار المكان الأول لظهور الدعوة ، تدفع بالباحث والمفكر إلى تلمس بعض مميزات الزمان ، الذي ظهرت فيه الدعوة الإسلامية ، للوقوف على بيان فضل الله وكمال عنايته – جل شأنه – .

ففي أوائل القرن السابع ، وعلى حين فترة من الرسل ، ظهرت الدعوة الإسلامية هداية للناس أجمعين .. وأول ما يطالع الباحث في الإشارة إلى عناية الله – سبحانه وتعالى – : قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « **بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ ، قَرْناً فَقَرْناً ، حَتَّى كُنْتُ مِن الْقَرنِ الَّذِي كُنْتُ فِيه** »[1] .

والمراد بالبعث – كما يقول العلماء – : تقلبه في أصلب الآباء من الأبعد إلى الأقرب فالأقرب .[2]

ولا يخفى على أحد : أن العلم يتعلق بسائر الحيثيات التي تحتاجها الدعوة ، لكي تصل إلى هدفها ، ومن بين هذه الحيثيات المختارة ، الزمن الذي ظهرت فيه الدعوة ، إذ لم يكن للعالم كله في تلك الفترة حالة لا توصف بالسوء ، ولا يقال فيها بالإجمال ، إلا أنها حالة فساد وانحلال . فلا حاجة للعلم ، ولا للسياسة ، ولا للأخلاق ، ولا للمرافق العامة ، لا توصف بتلك الصفة ، ولا تغلب فيها السيئات كل الغلب على الحسنات .

---

(١) رواه البخاري ، في صحيحه مع فتح الباري ، كتاب المناقب ، باب صفة النبي – صلى الله عليه وسلم – ، جـ : ٦ ، ص : ٥٦٦ .

ورواه أحمد ، في المسند ، جـ : ٢ ، ص : ٣٧٣ – ٤١٧ .

ورواه ابن سعد ، في الطبقات الكبرى ، جـ : ١ ، ص : ٢٥ .

(٢) أبو الطيب البخاري ، عون الباري لحل أدلة صحيح البخاري جـ : ٥ ، ص : ٣٧ ، طـ : مطابع قطر الوطنية ، سنة : ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م .

وإذا نظرنا إلى الأحوال في جملتها ، وجدنا أنها هي الأحوال التي تنادي في كل مكان بالحاجة إلى الدعوة الدينية .

إن ظاهرة واحدة ، كانت تلف تلك الظواهر جميعاً في طياتها وهي فقدان الثقة بكل شيء ، ولا معنى لذلك في كلمة موجزة ، إلا أن الثقة هي المطلوبة ، وأن الإيمان هو دواء هذا الداء الذي استشرى في كل مكان[1] .

الحالة الدينية :

كانت حالة الناس قد وصلت من الفساد إلى النهاية ، وبلغت البشرية الدرك الأسفل من الانحطاط ، وغشيت العالم كله ظلمات كثيفة ، من الكفر والجهل والفجور ، وغير الناس وبدلوا في الدين ، وحرفوا كثيرا مما أنزل الله على رسله من الكتب ، وعبدوا من دون الله آلهة شتى ، فالبوذيون كانوا يعبدون « بوذا » والهندوس كانوا يعبدون « البقر » ، والمجوس كانوا يعبدون النار . وكانت أمم تعبد الملائكة والجن ، وأمم تعبد الصور والتماثيل ، وأمم تعبد آثار الموتى ، وأرواحهم ، وكانت أمم تعبد مظاهر الطبيعة وتقدسها ، منهم : من يعبد الشمس والقمر ، ومنهم من يعبد الأنهر ، ومنهم : من يعبد الحجارة[2] ، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[3] .

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ الآية[4] وتفرق أهل كل دين مذاهب وشيع ، واشتد بينهم الخلاف والجدل ، حتى غدا الدين الواحد خليطا من المذاهب المتناقضة ، وسادت الخلافات والخرافات والأوهام ، وشاعت الإباحية والفوضى ، وارتكبت الفواحش باسم الدين[5]

(١) العقاد ، المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد ، جـ : ٧ ، ص : ٢٣٦ ، ط : دار الكتاب اللبناني ، سنة : ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

(٢) محمود الحسيني ، الدين المقارن ، ص : ١٤٣ .

(٣) سورة البقرة ، آية رقم ١١٣ .

(٤) سورة التوبة ، آية رقم ٣٠ .

(٥) أمين دويدار ، صور من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ص : ١٠٦ ، ط : الأولى ،

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1] .

وكان العرب أسوأ الناس حالا ، وأشدهم إمعانا في الجهالة والضلالة فقد أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وعبدوا العديد من الأصنام والأوثان والأنصاب والتماثيل ، والأشجار ، وكثبان الرمال ، وعبدوا الملائكة والجن ، واعتقدوا أن الهواء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والحجارة تتصرف في أمورهم ، وفي مستقبل حياتهم ، وكان إيمانهم بالله إيمانا مشوشاً مضطرباً ، يعتقدون أنه الإله الأكبر ، الذي يخلق ويرزق ، ويحيي ويميت ،﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[2].

ولكنهم يؤمنون بأن هناك آلهة أخرى ، تخلى لها – سبحانه – عن بعض التصرفات كشفاء المرضى ، ومنح الذرية ، وإنزال الغيث ، وتصريف الرياح وإبعاد المجاعة ، وكشف الضر ، وجلب الخير . وأن هؤلاء الآلهة وسائط بينهم وبين الله ، يتوسلون بهم لديه في التجاوز عن ذنوبهم ، والعفو عنهم[3] .

حالة الامبراطورية الرومانية :

إذا ذهب الباحث إلى البلاد المجاورة للبلاد العربية ، ليتعرف على أحوالها قبل بعثة محمد – صلى الله عليه وسلم – ، فلا يجد إلا اضطراباً سياسيا ، شاملاً ، وفوضى دينية عامة ، وانحلالا اجتماعيا فاشيا .

فالامبراطورية الرومانية كانت في القرن السابع الميلادي مفككة الأوصال ، وكانت قد قسمت إلى امبراطوريتين : امبراطورية شرقية عاصمتها : القسطنطينية ،

القاهرة .

(١) سورة الروم ، آية رقم ٤١ .

(٢) سورة العنكبوت ، آية رقم ٦١ .

(٣) أمين دويدار : صور من حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ص : ١٠٧ .

وامبراطورية غربية ، عاصمتها : روسية . وكانت علامات الضعف وأمارات التفرق بادية في كل من الامبراطوريتين . وكان ذلك بسبب تنازع الأحزاب السياسية ، والفرق الدينية[١] .

لقد حل الدمار بالامبراطورية الرومانية ، وساءت أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكانت حضارتها قائمة على أكتاف الفقراء ، الذين كانوا يعملون لحساب الأغنياء ، فتاريخ هذه الدولة عبارة عن : إهمال وفساد ، واختلال وهرج ومرج ، وفوضى عمت جميع فروع الحكومة ، وقد تخاطفت أجزاءها الأمم الضعيفة ، وفتكت بها ثورات القائمين بخدمة القصر ، وأخضعها محبو الظهور ، من رجال الجندية ، فظهرت بها الجرائم وأعمال النهب والسلب ، واختفت آثار الثقافة والكرامة الشخصية[٢] .

لقد ساءت الأحوال الاجتماعية والسياسية في جميع أنحاء الممالك الخاضعة للمسيحية ، فقد حال النظام القائم في تلك الجهات ، دون حرية التفكير ، وحرية الحكم على الأعمال ، ولم يتورع أصحاب أتباع المسيح الخاضعون لسلطانه ، أن يشوهوا وجه العصر ، ويجعلوه عصر اضطهاد وإزهاق للأرواح ، وذبح كل ثائر أو خارج على الكنيسة الرسمية[٣] .

يضاف إلى ذلك : أنه لم تبق نحلة – في هذه الامبراطورية – من النحل الكثيرة ، إلا حكمت على مناقضيها بالمروق ، وتعددت هذه النحل بين « الأريوسية » و« النسطورية » و« اليعقوبية » و « الملكانية » على تباعد الأقوال في الطبيعة الإلهية ، ومنزلة الأقانيم الثلاثة منها ويأتي النزاع بين الكنيستين الشرقية

---

(١) حامد عبد القادر ، الإسلام وظهوره ، ص : ٧٥ – ٧٦ .
عمر رضا كحالة ، العالم الإسلامي ، جـ : ١ ، ص : ٩٧ – ٩٨ .

(٢) المكتب الفني بوزراة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم –) ص : ٣٥ ، ط : وزارة الأوقاف المصرية ، سلسلة مكتبة الإمام رقم : ٢ ، ربيع الأول ، سنة ١٣٨٩هـ .

(٣) حامد عبد القادر ، الإسلام وظهوره ، ص : ٨٠ .

والغربية ، فيقضي على البقية من الثقة والطمأنينة ، ولا يدع ركناً من أركان العقيدة بمبعدة من الجدل والاتهام[١] .

حالة الامبراطورية الفارسية :

لم تكن الامبراطورية الفارسية قبل ظهور الإسلام بأوفر حظاً ولا أحسن حالاً من الامبراطورية الرومانية ، فقد كانت في حروب دائمة داخلية وخارجية ، وكانت تنافس الامبراطورية الرومانية في امتلاك آسيا ، وبسط النفوذ على سكانها ، وكثيرا ما كان مقدسو النار يهزمون عبدة المسيح وينهبون أموالهم ، وأحيانا كانت تدور الدائرة على الفرس ، فيغلبهم الروم ، ويقتلون منهم ، ويأسرون ويخربون ديارهم ، ويضمون أملاكهم إلى أملاكهم ، وكذلك كان القياصر والأكاسرة متنازعين ، لا يكفون عن المقاتلة إلا قليلاً[٢] .

وفي أوائل القرن السابع الميلادي : اشتبكت الامبراطوريتان الفارسية والرومانية في حروب ، كانت سببا في ضعفهما معا ، وضعف فارس بوجه خاص[٣] .

وفي الفترة التالية حدثت بفارس اضطرابات وفتن داخلية ، وتنافس على العرش عدد من الأكاسرة فكان الواحد منهم يُوَلَّى ثم يعزل بعد مدة قصيرة ، ومن المعروف أن ستة منهم تولوا العرش في أشهر قلائل وذلك بتدخل الجنود ، ورجال الحرس الامبراطوري ، الذين أطلقوا أيديهم وكانوا أصحاب التصرف المطلق في شئون الدولة ، فكانوا هم الذين يولون الأكاسرة ، ويعزلونهم كما يشاءون ، وبذلك سقطت هيبة الملك ، وقلت قيمة العرش ، وعمت الفوضى وانتشر الفساد وساءت حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية إلى درجة لا تطاق[٤] .

ثم كانت الطامة الكبرى في عهد قباذ أبي كسرى أنو شروان الذي حضر بعثة

---

(١) العقاد : المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد ، جـ : ٧ ، ص : ٢٤١ .

(٢) عمر رضا كحالة ، العالم الإسلامي ، جـ : ١ ، ص : ١٠١ .
المكتب الفني بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول) ص : ٣٦ .

(٣) المكتب الفني بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول) ، ص : ٣٦ .

(٤) حامد عبد القادر ، الإسلام وظهوره ، ص : ٨٨ .

النبي – صلى الله عليه وسلم – وتلقى رسالته بالسخط والوعيد ففي عهد قباذ ظهر (مزدك) داعية الإباحية والفوضى في الأموال والأعراض ولم يتزحزح هذا الداعية خطوة واحدة من الثنوية إلى التوحيد ، أو ما يشابه التوحيد ، وقال كما قال (ماني) من قبله : إن العالم كله في قبضة إله النور ، وإله الظلام ، غير أنه زاد عليه : أن النور يفعل بالقصد والاختيار ، وأن النور عالم حساس ، والظلمة جاهلة عنها[1] .

وبالرغم من نتائج المصلحين الذين اجتهدوا غاية الاجتهاد في تطهير الديانة المجوسية من الوثنية ، والمراسم الهيكلية ، لم تزل عقيدتهم جميعا في الأرواح والشياطين حائلا بينهم وبين التوحيد ، فإن موالاة الأرواح ومحاذاة الشياطين تسوقانهم إلى ضروب من العبادة والزلفى لطوائف شتى من الأرباب الصغار ، عدا الإلهين الأقدمين : إله النور ، وإله الظلام[2] .

حالة الهند :

وأما في الهند ، فقد انتشر مذهب إباحة النساء بواسطة دعاة أقوياء وقد بلغ من الفحش : أن الكاهن الهندي كان يحظى بالعروس في اللقاء الأول ، لينشر عليها وعلى زوجها البركة والنعمة ، وكانت الأناشيد التي تنوء بالمنكرات والفضائح تلقى في الاحتفالات العامة ، فتمد مستمعيها من الغواية بأسباب ، وتفتح لهم من الآثام كل باب[3] .

حالة بلاد العرب :

كانت حالة العرب قبل الإسلام طوائف متنازعة ، وقبائل متباغضة وديانات متنافرة ، ونحل متحاسدة ، ولم تستطع اليهودية ، ولا النصرانية – بالرغم من

---

(١) العقاد ، المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد ، جـ : ٧ ، ص : ٢٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج : ٧ ، ص : ٢٣٨ .

(٣) محمد جاد المولى ، محمد المثل الكامل ، ص : ٦٤ ، ط : دار إحياء الكتاب العربي ، بمصر .

نشاط دعاتهما – أن تجمع شملهم ، وتؤثر في نفوسهم ، وكانت أطراف الجزيرة العربية لقمة سائغة في أفواه المغيرين من الأجانب فقوى نفوذ الأكاسرة في الحيرة ، وما حولها ، وظهر سلطان الروم في الشام وبلاد الغساسنة ، ودخل الأحباش ثم الفرس بلاد اليمن ، وكان هؤلاء الأجانب يحرضون أنصارهم من العرب على أعدائهم ، ومن يناصرهم من العرب فكان العربي يعادي أخاه العربي ويقاتله ، ويريق دمه ، لا لسبب سوى الانتصار للأجانب[1] .

وقد ظلت بلاد اليمن محلا للنزاع ، ومسرحا للقتال قرونا متعددة وكانت الحروب تقع لأسباب دينية ، وغير دينية ، بين يهود خيبر ونصارى الأحباش ، ومجوس فارس[2] والأمة العربية كانت قبائل متخالفة في النزعات خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة في قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها وسبي نسائها ، وسلب أموالها ... تسوقها المطامع إلى المعامع ، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات[3] .

ويضاف إلى ما سبق : أن نظام حياة العرب ، كان قائماً على الظلم ، ظلم القوي للضعيف ، وتحكم القادر في العاجز ، وكان اعتمادهم على القوة وحدها ، فكانت الإغارة ، والسلب والنهب ، والأخذ بالثأر ، وحب الانتقام هي العلاقة التي تربط بين القبائل بعضها وبعض ، حتى صارت الحرب نظامهم المألوف ، وحياتهم المعتادة ، وكانت مناقشة تافهة ، تكفي لإشعال حرب طاحنة ، وثارات يتوارثها الخلف عن السلف ، وكان القتال إذا اشتعلت ناره ، دام عدة سنين ، وقد يدوم عشرات السنين حتى غدا تاريخهم في الجاهلية سلسلة من الحروب الداخلية ، لا تكاد تنتهي ، ولم يكن لهم نظام جامع ، ولا حكومة موحدة ، بل كانوا قبائل متفرقة ، كل قبيلة تؤلف وحدة قائمة بذاتها ، مستقلة في نظامها

---

(١) حامد عبد القادر ، الإسلام وظهوره ، ص : ٧٧ .

(٢) المكتب الفني بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول) ص : ٣٧ .

(٣) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص : ١٨٠ ، ط : دار الهلال ، سنة : ١٢٨٢هـ .

وتقاليدها وأحكامها[1] .

ومن مظاهر الظلم في حياة العرب : أن المرأة عندهم ، لا تكاد تبرز حتى يعرف فيها طالع الشؤم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾[2] .

ولعل الأبيات الثلاثة التالية لإحدى البدويات ، تعبر تماما عن هذه الحالة ، عندما وضعت أنثى وغضب زوجها ، فامتنع من المجيء إلى بيته ، وأقام عند الجيران ، اشمئزازا ، فقالت زوجته معتذرة :

ما لأبي حمزة لا يأتينا ... يقيم في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا ... والله ما ذلك في أيدينا
فنحن كالأرض للحارثينا ... ننبت ما قد غرسوه فينا[3]

تستقبل شر استقبال ، تورث ولا ترث ، وَتُمْلَكُ ولا تملك ، وكان البعض القليل من يملكونها ، يحجرون عليها التصرف فيما تملكه[4] . إلى غير ذلك من مظاهر الظلم ، والاستبداد ، والإذلال ، وكانت الأنثى على العموم مجلبة الحزن ، ومظنة العار والفقر[5] .

---

(١) أمين دويدار ، صور من حياة الرسول ، ص : ١٢ .

(٢) سورة النحل ، الآيتان : ٥٨ - ٥٩ .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ : ٣ ، ص : ٤٨٢ ، ترجمه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه : أحمد أمين ، أحمد الزين،إبراهيم الأبياري ، طـ : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بالقاهرة سنة : ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م .

الجاحظ ، البيان والتبيين ، جـ : ١ ، ص : ١٨٦ ، طـ : مصر ، سنة : ١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م .

د . نايف محمود معروف ، طرائف ونوادر من عيون التراث العربي ، الكتاب الأول ، ص : ١٧٣ - ١٧٤ ، طـ : دار النفائس .

(٤) صبري عبد الرؤوف ، وأحمد السايح ، المرأة المسلمة وقضايا العصر ، ص : ٥ ، طـ : الأولى ، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ، سنة : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

(٥) أمين دويدار ، صور من حياة الرسول ، ص : ١١٢ .

تلك أحوال كانت في العرب والروم والفرس وغيرهم ، وهذه الأحوال التي عرضنا لها بإيجاز ، كانت مقدمات ، والمقدمات لا تأتي بنتائجها على وتيرة الداء الذي يتبعه الفناء ، ولكنها مقدمات العناية الإلهية التي تدبر الدواء للداء المستحكم على غير انتظار وبغير حسبان ، عالم إذا صح أن يقال عنه : إنه كان ينتظر شيئا من وراء الغيب ، فإنما كان ينتظر عناية الله .

وإذا كنا نعرض لأحوال العرب والفرس والروم والهنود ، فإنه يجدر بالباحث أن يتعرف على أهم خصائص العصر الذي ظهرت فيه الدعوة الإسلامية . والدراسة والبحث يقفان بنا إلى أن هذا العصر قد تميز بالخصائص الآتية :

أولاً : تعدد الصراع :

فقد ساد العالم في هذا الزمان صراع هام ، فلم تخل أمة أو منطقة منه ، سواء كان الصراع بين عناصر الأمة الواحدة ، أو بينها وبين غيرها . وأهم ما تميز به هذا العصر : هو تكرار الصراع تكرارا متلاحقاً ، فمنهزم اليوم ينتصر غدا ، وهكذا دواليك ، من غير توقف وغالباً ما كان الصراع بسبب سياسي ، أو اقتصادي ، أو ديني ، تبعاً لاختلاف البيئات .

ففي البيئة العربية ، لم ينشأ صراع بسبب السلطة ، خصوصاً بعد أن وزع (قصى) الأعمال بين القبائل ، وجعلها فيهم وراثية وإنما كان صراع العرب بسبب الاقتصاد في أكثر الأحيان[1] .

وإذا ذهبنا نبحث عن الصراع في البيئة الرومانية ، وجدنا أن الصراع ينحصر في الدين والسياسة ، وفي الفرس كان الصراع هو الدين ، وفي الحبشة كان السبب كذلك هو الدين ، وفي الهند كان هو نظام الطبقات إلا أنه مع تنوع أسباب الصراع ، فإن هناك أسباباً كانت موجودة في سائر الأمم ، من أمثال : ظاهرة

---

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٧ .

الرق[1]

لقد كانت دولتا العالم دولة الفرس في الشرق ، ودولة الرومان في الغرب ، في تنازع وتجالد مستمر ، دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة وأموال هالكة وظُلَمٌ من الإحن حالكة [2] .

ومما يذكر أن الصراع الداخلي ساد سائر الأمم ، في الدولة الرومانية الشرقية قامت ثورات عدة ، أشهرها : ثورة الزرق والخضر في أثناء حكم (جستنيان) سنة : ١٥٣٢م ، التي طالبت بإقصاء وزير المالية ، وإجراء تعديلات كثيرة ، وقد قضى (جستنيان) على هذه الثورة بإهراق دماء كثيرة ، وصلت إلى قتل خمسة وثلاثين ألفا[3] .

وفي الرومانية الغربية نشأت دولة جرمانية ، وقامت ثورات عدة وحروب كثيرة ، من أشهرها في بلاد الغال « فرنسا » إذ ظهر الصراع على أشده ... وبين العرب كانت أيامهم كيوم داحس ، الذي استمر مدة طويلة وكذلك حرب البسوس ، وحرب حاطب بين الأوس والخزرج ، وقد استمرت إلى قبيل الإسلام[4] .

ومع الصراع الإقليمي وجد الصراع الدولي بين الفرس والروم ، إذ اشتبكت الامبراطوريتان ، الفارسية والرومانية ، في حروب كانت سببا في ضعفهما[5] .

وإن الصراع بكافة أشكاله وصوره ، يؤدي حتماً إلى تغييرات اجتماعية ومن المتغيرات التي يمكن أن تحدث بعد أي صراع ، ظهور قوي جديدة وبروز أفراد يقابلون المخاطر بفهم وشجاعة .

---

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٧ .
(٢) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص : ٧٧ .
(٣) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٨ .
(٤) المرجع السابق ، ص : ٨٨ .
(٥) حامد عبد القادر ، الإسلام وظهوره ، ص : ٨٩ .

وقد استفادت الدعوة الإسلامية من كل هذا ، لأن القوى الجديدة التي ظهرت في مكة ممثلة في الحنفاء والحكماء ، كانت ركيزة لانطلاق الدعوة .

ثانيا : تفتح الأذهان على خطورة هذه الصراعات :

إن التفتح الذهني يجعل المتصارعين لا يتعصبون لشيء معين ، ويبحثون عن قيمة إنسانية تخلصهم من هذا الصراع ، كما أن الطبقة المستضعفة تتمنى الخلاص ، والهروب مما هي فيه . وذلك لأن الانفتاح الذهني وذوبان التعصب الأعمى يفيدان الدعوة في كثير ، فبالذهن الصافي تفهم التعاليم والأفكار ، وبذوبان التعصب تتخلص الدعوة من عدو بغيض يقف في طريقها ، كما أن فكرة البحث عن قيمة راقية ، وخلاص للضعفاء ، بدأت تأخذ وضعاً مطردًا .

إن صراعات هذا الزمن تميزت عن كل ما سبقها بالشمول والعمق إذ انتشرت في العالم كله بشكل مستمر ومتجدد ، كما أنها لامست سائر حياة الناس وعاشت في نفوسهم وأحلامهم ، ولذلك كانت نهايتها أمنية صادقة على مستوى هذا الشمول وهذا العمق[1] .

ومن هنا : فإن الإنسان لا يعدو الحقيقة ، حين يذكر أن صراع هذا العصر ، كان من حكمة ظهور الدعوة فيه ، وجلت حكمة الله القدير – وحاشاه – أن يختار زماناً غير ملائم للدعوة ، أو يكون اختياره لهذا الزمان بالذات غير مقصود ، لأن الحقيقة الثابتة بكل إتقان ودقة ، والمتعلقة بكل شيء تنبع من قوله تعالى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[2] .

ثالثا : النضج الفكري :

شاهد القرن السادس الميلادي تطوراً عقليّا في كل أرجاء المعمورة بشكل لم يعهده الناس ، حتى كان البشر قد ترقوا من طفولتهم الذهنية إلى مرحلة بلغ

---

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٩ ، بتصرف .

(٢) سورة الرعد ، آية رقم ٨ .

فيها الإنسان أشده ، وأعادته الحوادث الماضية إلى رشده[1] . ولعل المراد من النضج العقلي المذكور : هو وصول الإنسان إلى التفكير الكلي المنظم ، الذي يستنتج من المحسوس ، ومن القضايا العقلية أشياء أخرى غيرها ، وينظر للحياة نظرة فيها الرضا ، القائم على التحليل والنقد ، أو السخط المعتمد على الدليل والمناقشة ، ويحاول دائماً السمو إلى العلا والتقدم ، ذلك أن طفولة الإنسان كانت تقوم على المحسوس فقط ، إذ تبهر بالعجائب ، وتسحر بالظواهر الخارقة[2] .

فالنضج العقلي قد ساد العالم كله ، وقد تجلى هذا الواقع في نقد ظهر في كل مكان ، متجهاً إلى الناحية الدينية وأوهامها ففي العالم المسيحي الواسع بدأت الأصوات ترتفع ضد أوضاع لا تتفق مع الطبيعة العقلية ، من أمثال : المناداة بألوهية الفطرة ، القائل : ببشرية المسيح ، وتكونه من طبيعة إنسانية واحدة ، وقد اختاره الله – سبحانه وتعالى – ليكون رسولاً نبيا من قبل الإله الواحد ، وأحاطه بالحواريين التي لا توجد مع الناس دفعاً إلى تصديقه في دعواه ، وما دفعهم إلى هذا الرأي إلا عقلهم الذي أبى التصديق بما هو وهم وخيال[3] .

ولو تركنا عالم المسيحية إلى غيرهم ، لوجدنا أن الهنود قد أيدوا ثورة « بوذا » على الهندوكية[4] في بعض تعاليمها ، ومحاولتها تبسيط العقائد والاهتمام بالأخلاق ، والعودة إلى الفطرة[5] .

وفي الجزيرة العربية – وبالرغم من تعمق القوم في تقديس الأصنام وتعظيم الحجر – فإن النضج الذي اتسم به العصر ، بدأ يظهر في العرب ، إذ اتجهوا

---

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص : ٢٢٥ .

(٢) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٩١ .

(٣) المصدر السابق ، ض : ٩١ .

(٤) الهندوكية ، هي : الهندوسية التي سبق الحديث عنها قبل قليل ، وهي : لفظ يطلقه الأوربيون على ديانة الهنود .

(٥) د . محمد عبد المنعم الشرقاوي ، ملامح الهند وباكستان ، ص : ١٤٣ ، ط : الأولى ، دار المعارف ، بمصر ، سنة : ١٩٥٢م .

بعقولهم إلى حياتهم ينظرون فيها ، ويضعون لها نظاماً يكفل الأمن والسلام[1] .

ولعل أوضح مظاهر النضج العقلي عند العرب ، ظاهرة الحنفاء الذين أخذوا يحللون بعمق وفهم فساد ما عليه الناس ، ويبينون الحاجة إلى دين يعرف بالخالق والطريق إليه[2] .

رابعاً : انتظار رسول جديد :

كان للنضج الذي ساد العالم ، وكثرة الصراع وتنوعه قبيل الدعوة أن ظهرت موجة من النقد للعقائد يوم ذلك ، والنقد على العموم ظاهرة تدل على عدم اكتمال الثقة في هذه العقائد ، التي توجه النقد إليها ومن هنا : صاحب عملية النقد شعور بقرب ظهور نبي من العرب يصلح فساد هذا العالم ، ويضع الحقيقة الفاصلة في مسألة العقيدة والسلوك وكل ما يسنده الناس إلى الأصنام ويطلبونه منها ، وقد وصل هذ الشعور إلى حد الاحتمال المؤكد ، لدرجة أن اليهود في المدينة « يثرب » كانوا ينتظرون هذا النبي على وجه اليقين ، وكثيرا ماذكروا لجيرانهم من الأوس والخزرج أنهم سيتبعون هذا النبي – صلى الله عليه وسلم – فور ظهوره ليتمكنوا به من سيادة العالم ، وتملك الناس ، وقتل الأوس والخزرج قتل عاد وإرم[3] .

والقرآن الكريم يقص ما كان منهم في هذا الشأن ، بقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4] أي : كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم ، ويقولون : إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم[5] وكانوا يقولون : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٩٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص : ٩٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص : ٩٥ .
(٤) سورة البقرة ، آية رقم ٨٩ .
(٥) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ : ١ ، ص : ١٧٨ .

الزمان ، الذي نجد نعته وصفته في التوراة ، ويقولون لأعدائهم من المشركين : قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم[1] وكانوا يسألون العرب عن مولده ، ويصفونه بأنه نبي من صفته كذا وكذا ، ويتفحصون عنه ، والآية نزلت في بني قريظة والنضير ، فقد كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج ، برسول الله قبل البعث[2] .

ورأي اليهود له وزنه عند جيرانهم ، قبل البعثة ، لأنه قد اشتهر عنهم معرفتهم ببعض أسرار الوحي وعلامته . فلقد روى أن مشركي مكة – لما بعث محمد – صلى الله عليه وسلم – فيهم : أرسلوا وفداً منهم يسأل اليهود عن رأيهم في هذا الرسول الذي أتاهم ودعاهم بدعوته[3] .

ولم تكن هذه المعرفة مخصوصة بيهود المدينة وحدهم ، فلقد انتشر خبرها في أماكن كثيرة ، ووصلت إلى أقصى الشمال ، لدرجة أن سلمان الفارسي ، حينما أراد أن يترك المجوسية ، ويبحث عن الدين الحق ليعتنقه ، سمع من يقول : إنه قد أظل زمان نبي ، وهو مبعوث بدين إبراهيم – عليه السلام – يخرج بأرض العرب مهاجره إلى أرض بين حرتين ، بينهما نخل ، وبه علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة وليس ذلك بكثير على علماء اليهود والنصارى ، لأنهم ﴿ ... يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾[4] .

يقول ابن كثير في تفسيره : وهذه صفة محمد – صلى الله عليه وسلم – في كتب الأنبياء ، بشروا أممهم ببعثه ، وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم ، يعرفها علماؤهم وأحبارهم[5] .

---

(١) الزمخشري ، الكشاف ، جـ : ١ ، ص : ٨١ .

(٢) الرازي ، التفسير الكبير ، جـ : ٣ ، ص : ١٩٤ .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ : ١ ، ص : ٣٢٠ .

(٤) سورة الأعراف ، آية رقم ١٥٧ .

(٥) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ : ٣ ، ص : ٤٨١ .

وكما وصل خبر ظهور نبي إلى أقصى الشمال ، وصل كذلك إلى أقصى الجنوب ، فقد روى أنه لما ذهبت القبائل العربية لتهنئة حمير ، أفضى سيف بن ذي يزن لعبد المطلب ، بما علمه من كتبه أن نبيا سوف يظهر في العرب ، يضمن الزعامة لقريش إلى يوم القيامة[1] .

وهكذا ظهرت ملامح وطوالع النبوة في عقول الناس ، وفي كثير من الأماكن وهذه الملامح والطوالع في حد ذاتها تمهد للدعوة ، وتدعو إلى استماعها بشوق ، خصوصاً وقد حدثت أحداث كثيرة ، جعلت الناس ينتظرون التغيير على يد هذا الرسول المنتظر للدعوة الإسلامية ، وظهورها في العالمين .

***

(١) الأزرقي ، أخبار مكة ، جـ : ١ ، ص : ٩٤ – ٩٦ ، بتصرف .

obeikandl.com